الذات العربية وموقفها من الحضارة الغربية

بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري

لكل امة شخصية تاريخية ونفسية خاصة تنشأ عن ظروفها التاريخية والجغرافية وتبدو في وجهتها وقيمها المشتركة. وتحتاج الامة في أدوار القلق الى ان تفحص كيانها وان تفهم ذاتها لتستطيع النهوض ولتتمكن من مجابهة الموجات الخارجية. ويهمني في هذا المقال ان ابدي بعض الملاحظات حول الذات العربية وموقف العرب من الغرب.

ولعل فهم الذات يتم بملاحظة بعض القيم المشتركة والوجهة في الحياة. ولنذكر بعد هذا أن المجتمع العربي في كل عصر من عصوره يتدرج من البداوة الى الريف الى الحضارة المتأثرة بالغرب (أو بحضارة اخرى) تأثراً سطحياً أو محدوداً لدى الاكثرية وبصورة عميقة لدى الاقلية. وهذا يشير إلى تنافر في بعض القيم وإلى ضرورة تحديد وجهتنا في الحديث عن الذات العربية.

ولكن دور العرب في التاريخ ورسالتهم الكبرى هي في دورهم الحضاري وفي فترة الابداع التي تلت ظهور الاسلام. وما دام تكوين الدولة والمجتمعات الاسلامية يتصل بالعرب المتحضرين فان فهم الذات العربية يتركز على هذه المرحلة.

وليست هذه المرحلة الحضارية راكدة، بل تطورت ومرت بادوار. ومعنى ذلك محاولة فهم الذات خلال هذه الادوار، وذلك لملاحظة الأصيل من الطارىء والنامي المتطور من الراكد.

وهذه المحاولة لا تتحقق إلا بدراسة كنوز الفكر العربي التي تعبر عن القيم المشتركة. فندرس الحديث وكتب الفقه والأدب والانسانيات ككتب الغزالي، ونتابع دراسة التاريخ بروح نقدية، ندرسها كمختصين بنصوصها الاصلية، وندرسها في المدارس بصورة مبسطة لنبث الروح التي تنطوي عليها ولنغذي الذات الحالية القلقة.

وإن جاز أن أضع بعض الخطوط فاني ألحظ مبدئياً قيمة المعنويات والمثل في هذه الامة. وليس القصد من ذلك انها لا تقدر الماديات بل انها تحتاج إلى الهيكل الادبي والروحي، تحتاج الى العقيدة لتضحي ولتسير موحدة وإلا اشتعلت الأنانيات والفرديات والنزاعات الضيقة. وقد عبر عن ذلك ابن خلدون حين أكد ان العرب لا يخضعون إلا لرئاسة دينية.

وسائر الأرواح في الكون، والذي يخاطب «المصلوب» مخاطبة الأخ لأخيه فيقول له:

«مني اليك يا أخي الغالي:

«لا يهمنك أن الكثير ممن ينادون باسمك لا يفهمونك.

فأنا لا انادي باسمك، ولكنني أفهمك. وهنالك غيري كذلك.

نحن وإياك نسير معاً صامتين في خضم من الجدال والتأكيد، فلا نرفض المتجادلين ولا شيئاً مما يؤكده المؤكدون.

ونحن نسمع ما يثيره الجدال والتأكيد من نزاع وضوضاء. ولكننا يا رفيقي نمشي ولا قيد في أرجلنا. نمشي طليقين في كل أنحاء الأرض.

ولن نقف الا من بعد أن نترك لنا آثاراً بالغة في صحيفة هذا الزمان وكل زمان.

والا من بعد أن نملأ هذا الزمان وكل زمان بالأخوة التي تشدنا بعضاً لبعض.

كيما يعيش رجال الأجيال الآتية ونساؤها

اخوة وأحبّاء مثلما أعيش واياك أخوين وحبيبين.»

لو لم تقيّض الأقدار للشعر المنسرح زعيما من عيار وولت هوتمن لانتهى الى حيث انتهت ازياء أدبية كثيرة من قبله ومن بعده — الى النسيان. ولكن عبقرية هوتمن الجياشة بالحب والصدق والتعطش الى الحرية والايمان بجمال الحياة وقدسيتها هي التي كفلت لذلك النوع من الشعر البقاء حتى اليوم. فما انصرف هوتمن عن هذه الدنيا عام ١٨٩٢ حتى كانت شهرته قد طارت عبر المحيطات والقارات. ففي الولايات المتحدة وغيرها أندية ادبية كثيرة تحمل اسم هوتمن، وشعراء يحيون ذكره ويستلهمونه، ويسيرون تحت لوائه وعلى حدائه.

ميخائيل نعيمه

ثم نجد روح المساواة متأصلة . ومع تبدل الظروف والأحوال بقيت هذه الروح قوية ، وهي تتأرجح بين مساواة صحيحة على أساس الكرامة البشرية في دور الفتوة الحضارية وبين مساواة مرتبكة عنيفة تتأجج فيها روح الفردية الجامحة في دور الركود. وهي في الحالة الاولى تتمشى مع روح الشورى وتبادل الرأي، وفي الحالة الثانية تتمشى مع التجاوز على كرامة الانسان في دكتاتورية مقنّعة أو مكشوفة .

ونلحظ التأكيد على فكرة الجماعة والتعاون المطلق فيها بحيث تتمثل في الشؤون العامة وفي الفعاليات المختلفة . وهي بين الجماعة السمحة الشاملة في دور الفتوة وبين الجماعة الضيقة في القبلية أو الاقليمية وغيرها من التكتلات التي تعارض المجموع.

ويتصل بهذا ، التمسك بالحرية وعدم الصبر على الضيم . وهي بين حرية فردية هوجاء تؤدي الى الخلاف والتحلل كما في بعض الجماعات البدوية ، وبين الحرية العامة الشاملة التي ترى حرمة الفرد وحريته في حرية المجموع ونطاق الأنظمة المرعية المرتضاة كما تتمثل في وثبة العرب « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » .

وتبدو هذه الذات في روح التسامح المتمثل في نواح متعددة : في سماع الآراء وتقبّل الصراحة ، في تقدير قيمة الغير والاعتراف بالفضل ، في الأفق المفتوح للمعرفة واخذ الحكمة مهما كان مصدرها ، وفي تجنب التعصب الذميم .

وتتصف هذه الذات بطابع من الاستمرار ومن الذاكرة الاجتماعية والحفظ التراثي يتراوح بين الركود مدة طويلة على وضع معين كما في الفترة القبلية وبين الحركة المندفعة ولكنها حركة تحوي الأصول وتغذيها وتدفعها الى ازكى التراث كما في فترة الابداع . ولعل هذا الطابع ينطبق بصورة عامة على الساميين ولكنه يتضح بصورة خاصة لدى العرب . واقوى دليل على ذلك اللغة العربية بتاريخها المديد وحيويتها المتصلة وبقاء تعابيرها مستعملة على مر القرون مع نمو مستمر . وأميز ما في هذه الخاصة الاستفادة الكبرى من خبرة الاجيال . ولكن لا يخفى ان مثل هذه الصفة قد تكون مصدر خطر مباشر . فان فترات الخضوع تورث ذكرى شك عميق بين الراعي والرعية تحتاج الى زمن لازالتها . ومثل هذه الصفة توجب ان يكون المستقبل منبثقاً عن الحاضر وامتداداً للماضي . كما تعني ان هناك حيوية كامنة وأسساً قائمة لكل تجديد .

ومثل هذه الحيوية تبدو عند الاصطدام بموجة حضارية خارجية كالموجة الغربية . فكيف كان الموقف من الغرب ؟

ان تحديد الموقف من الغرب مشكلة معقدة ، لان الغرب لا يمثل ثقافة واحدة ، بل مجموعة ثقافات وخاصة عندما يتصل الامر بالانسانيات وبالدراسات الاجتماعية والتطورات السياسية . ولكن هذا لا ينفي وجود اصول مشتركة وهي التراث اليوناني الروماني والمسيحية والحركة العلمية ، هذا إضافة الى ثورات تالية كالثورة الصناعية والثورة الفرنسية .

ويتطلب فهم الموقف إدراك صورة الغرب التي وصلت إلى الشرق . فقد جاءت الى الشرق العربي في صيغة المباديء القومية والثورة الفرنسية اولاً ، وذلك قبل السيطرة الاستعمارية . ثم جاء الغرب في صورة الاستغلال المادي والسيطرة السياسية والعسكرية ومكافحة الحركات التحررية . وجاء وهو منشق على نفسه ، فأدهش الشرق بقواه المادية والعسكرية وولد رد فعل شديداً ضده نتيجة نظرته الاستغلالية . وجاء بصحيفتين متناقضتين فهو يريد تغريب الشرق العربي وصهره في حضارته ولكنه لا يقره على النهضة الفكرية والاقتصادية لانه يريد تجريده من كيانه من جهة ولا يريده نداً وخصماً . وهذا مطلب غير ممكن لانه يهدم نفسه .

ونلاحظ ان الموجة الغربية جاءت في دور يصفه فلاسفة الحضارة بانه دور توقف تجاوزت فيه الحضارة الغربية والفكر الغربي دور الابداع الى دور التطبيق والاستفادة من ابداع الفترات السابقة — التطبيق الاقتصادي والاستعمار للسيطرة على العالم واستغلاله ، ودور تشقق في الكيان الاجتماعي الغربي ، ودور الفردية العنيفة التي تتجاهل الجماعة ، وهو دور مادي في انه يؤكد على النواحي الحسية وعلى اللذة والفائدة دون ان تكون فيه ناحية روحية واضحة .

وليس غريباً ان نرى تبايناً في موقف الجماعات في الشرق العربي بين مبهور بهذه القوة وبمظاهر ترفها وازدهارها المادي ، وبين نافر منها نفرته من وجهتها ومن الخطر العسكري والسياسي . وهناك من انجرف بتيارها ناسياً شخصيته وإرثه ومن تمسّك بشخصه وتراثه عن علم او عن عاطفة . ويهمنا ملاحظة رد الفعل لدى الجماعات .

وقد حصل رد الفعل حين شعر الشرق العربي الاسلامي بالخطر يهدد كيانه . وتمثل في وجهتين عامتين وجهة عربية تستند

الى لغة العرب وثقافتهم وادبهم ، تتغنى بمجدهم وتريد استعادته وتدعو لتجديد اللغة ولاحياء الادب والثقافة العربية ولتجديد الشخصية التاريخية للامة العربية ويتمثل هذا في الحركات القومية.

ووجهة اسلامية تدعو لمبادىء الاسلام الاولى وخلقه وثقافته وتدعو لنفض الخمول والترسبات. ويظهر هذا في حركة جمال الدين ومحمد عبده وفي الحركة السلفية وفي حركة الاخوان المسلمين.

ولا نرى في دعوة اصحاب الوجهتين من يرفض علم الغرب وصناعاته لانها رمز قوته ولا ندري الى أي حد من التسلسل يصل هذا الاتجاه.

وهناك من يدعو لاخذ ثقافة الغرب ونظمه وعلومه كاملة دون قيد ناسياً انها تتصل بجذور محلية ان قطعت لم تزدهر، وناسياً انها ستصطدم بجذورنا هنا ولا يمكن لها ان تستقر معها كغطاء خارجي الا اذا اضعنا كل شيء وانتقلنا الى صورة هي لا شيء. كما انه يتجاهل الدافع الذي قررته الاوضاع فاننا نلحظ قوة وعي ذاتي ورد فعل اقوى يزداد بازدياد الصلة بالموجة الغربية.

وهناك جماعة تشمل جمهرة كبيرة من المثقفين تقول باخذ خير ما في الحضارة الغربية — اضافة الى خير ما في الحضارة العربية — ولكنها لا توضح ما هو مقياس الخير وتنسى انها ليست خارج نطاق هذا الصراع الحضاري بل انها جزء من مادته، وقد تفقد امكان الخيار متى دارت العجلة. وإن سلمنا جدلا بامكان الاختيار فهل نستطيع القول بان الحضارة الغربية قابلة للتجزئة؟

ان الحضارة الغربية بنواحيها المختلفة تكون وحدة منبثقة من الاصول المشتركة تحدوها مبادىء مشتركة، وهذا يجعل كل فرع منها متأثراً بهذه المبادىء والاصول. ومن العسير ان نرسم خطوطاً او خططاً تحدد الاجزاء التي تؤخذ والاجزاء التي تترك بصورة دقيقة. ولنذهب ابعد من هذا ونتساءل هل بالامكان فتح بعض الابواب وسد غيرها امام الجيل الحديث؟ اننا نشك كثيرا بذلك.

ولنعد الى التاريخ علنا نجد فيه ما ينفع. فان نحن نظرنا الى الحضارة العربية في العصور الوسطى نجدها فتحت افقها للحضارات الفارسية واليونانية والهندية، فنقلت في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك والجغرافية، واقتبست من الأدب الفارسي، ونقلت كثيراً من الآراء والكتابات الدينية. وتأثر العرب بنظم الادارة كما تأثروا بالتقاليد الاجتماعية، ولكنها كانت جزءاً من البيئة التي استقروا فيها ولم تكن وافدة. وهذا يعطي الانطباع عن امكان التجزئة، ولكن علينا ان نلاحظ ان العرب كانوا سادة مسيطرين وانهم التفتوا للعلوم بعد ان كونوا ثقافتهم، ووضعوا خطوط حضارتهم، فاستفادوا من غيرهم في بناء الهيكل. اما في عصرنا فان الثقافة الآتية من الخارج مسيطرة سياسياً، وقد جاءتنا ونحن في دور ركود ثقافي. ثم اننا نلاحظ ان ما اقتبس تلون بلون الخطوط الحضارية الاسلامية في النتيجة، وان قوة الهضم في الحضارة الاسلامية كانت العامل الفعال. هذا اضافة الى مدى التركيز في الاقتباس ومجال العناية الموجّهة.

وهكذا نرى ان العرب والمسلمين فتحوا الباب للثقافات الاجنبية ولكنهم ركزوا جهودهم على جوانب منها حسب حاجتهم وحسب تطورهم الفكري وانهم فعلوا ذلك بعد ان تكونت اسس شخصيتهم الثقافية. اما نحن فلدينا شخصية ثقافية لا تزال غير مستقرة.

ولعلنا بعد هذا نستطيع ان نلاحظ — مع اعترافنا بوحدة الاسس في الحضارة الغربية — ان موقفنا منها يعتمد على ناحيتين: الاولى قوة الهضم في الثقافة العربية الحديثة وقابليتها على ان تلفظ ما لا ينسجم وروحها وما لا يمكن تمثيله فيها، والثانية مدى التركيز على ناحية أو أكثر. وبعد هذا توجد نواح خالية في الثقافة العربية يجب الاستفادة فيها من الحضارة الغربية. فالأدب واللغة والمقاييس المشتركة والنظرة الخلقية والوجهة الروحية هذه اجزاء اصيلة وهي من مقومات الثقافة العربية ولكن العلوم والفكر الاقتصادي والفلسفة الحديثة مثلاً نواحٍ مخلخلة في كياننا ولا بد ان تنفذ اليها حضارة الغرب.

وإن كان لدينا توجيه فهو في تدعيم الاجزاء الاصيلة وتقوية الثقافة العربية لتتحمل الغذاء الجديد وتهضمه، وفي تركيزنا على النواحي الغربية التي ليس لدينا منها ما يذكر لنستطيع الاستفادة بصورة قصوى، ولا مانع من ان نستفيد من نظم الغير وخبراته العملية في العلوم والمال لتكون دثاراً لثقافتنا حتى تبدع بعد ازدهار.

ويبدو لي ان معرفة الاجزاء الاصيلة التي تكوّن كياننا الحضاري تتطلب فهم التراث العربي الاسلامي وتحديد أثره وهذا ما ارجو أن أتعرض له في فترة اخرى.

بغداد

عبد العزيز الدوري